



الأديب و المُفكّر الرَّاحِل رَمَضانَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ لَأَوْنَدٍ

هكذا نتغلب على المأساة

هكذا نتغلب على المأساة

.....

الإنسان الذي يمرغه الدهر بتراب الذلة والمهانة، ويجزّده من حقوقه الإنسانية المشروعة دون مبرر، هو إحدى المشاكل التي يعانيتها إنسان اليوم وإنسان كل قرن من قرون التاريخ، التاريخ الذي تضعه الأمم لتيسير أسباب عيشها والدفاع عن حريتها وتكريس القيم التي تمنحها الأمل والقوة والثقة بالحياة والأحياء.. لقد واجه مشكلة هذا الإنسان عدد كبير من الأدباء والمفكرين في مختلف ميادين اختصاصهم. لقد كاد الأدباء يستهلكون كل أسلوب من أساليب التعبير عن توقّهم إلى الحرية وإيمانهم بالقيم الإنسانية، وتعلقهم بالخير والحق والعدالة.

هذه الأساليب نجدها مرسومة فوق هياكل بعلبك وفي أعماق قبور الأهرام ومخابئها وفي أبهى القصور التي تتابعت فيها حملة من المآسي كان كل مشهد من مشاهدها ملحمة حية من ملاحم النضال من أجل إنسانية أفضل.

كما نجد هذه الأساليب فيما أبدعته قراء الناظمين والثائرين، في قصص الحب والحماسة وفي فئات الحكمة التي صنعتها التجربة في شتى وجوهها السعيدة والحزينة والضاحكة والباكية.

نجدها في واقعية الفن عند امرؤ القيس وهدوء الشيخوخة وسماحتها عند زهير بن أبي سلمى وفي الآلام التي رفض أبو نواس أن يعترف بها، فأصرّ على أن يصوغها سلسلة من قصائد الغزل الذي يضحج بالثورة على تقاليد المجتمع ومقاييسها وانطلق يوقع ألقانها في نسق من التعبير جديد، كلّ ما فيه يوحي بالرغبة العميقة الثائرة في تغيير الأوضاع وابتداع عالم جديد يعتزل به ما اتفق الناس عليه من مقاييس وقيم وحقائق وعادات.

ولا نكاد نبتعد قليلاً عن أبي نواس حتى يواجها المتنبّي في بأسه وثورته وهيامه بالبطولة ورغبته في البحث عن أسرار الحياة، هذه الأسرار التي لم يجدها وقد أتعبه البحث وأضناه السعي إلا في لمعان السيوف وغبار الفرسان

في ميادين القتال، وقيادة الملوك لجيوشهم الجرارة، أنه لم يجد طريقاً لتحرير الإنسان من ضعفه وذلته وإخراجه من حيرته بالبحث عن الفتاة الجميلة وزق الخمر بل وجد هذه الطريق في المجد.

لقد وجدها في تقطيع رقاب الملوك من الأعداء وفي الفتكات البكر التي يفرق بها الصفوف. فما المجد في رأيه غير السيف والفتكة البكر وتقطيع أعناق الملوك وأن ترى لك الهفوات السود والعسكر الحر، ويلفظ المتنبي أنفاسه وهو في صميم معركة انتحارية اعتقاداً منه أن مثل هذه المعركة هي أقصر طريق إلى الحرية والخلاص.

فإذا تركنا المتنبي لم نلبث حتى نرى أمامنا رجلاً أخنى عليه الدهر بكلكله وحطمته الآلام، فحرم نور الرؤية منذ طفولته كما حرم نور الإيمان الذي يتجاوب مع نور البصر.

هذا الرجل الذي قدم إلى البشرية رسوماً قائمة سوداء وضع فيها عبقرياً من الصور والخيالات والأحلام ولم يكن من أنصار الحياة الضاحجة بالغناء والشباب، لأنه لم يستطع يوماً أن يتمتع بغنائه وشبابه ولم يكن من المؤمنين بالبطولات التي تقتحم على المجهول أسراره، وتواجه سدود المستقبل بارادة حامية قاهرة.

لقد كان يحب اليأس لأن اليأس هو ملاذه ومرجعه وسيله إلى الطمأنينة المسكينة المتخومة من تحمل المسؤوليات.. إنه لا يجد في اعتقاده أن ينوح الإنسان أمام الموت وأن يتغنى بأغاني الجمال وألوانه.. إنه لم يكن يرى أمامه غير تفاهة الحياة وصغارها. لقد كان يتغذى برؤية القبور ويشم رائحة الجثث، ويشهد الليالي والنهارات تمر طاوية تحت أجنحتها السوداء جرائم المجرمين وعظمت الأبطال وأنفاس الرسل والأنبياء وبراءة الأطفال وأنوثة الجمال.

لم يكن شيء في خياله غير صورة واحدة هي صورة الدنيا التي لا تجد في الحياة غير مرحلة انتقال من عدم الأزلية إلى عدم الأبدية أي من أزلية ما قبل الولادة ومن أبدية ما بعد الموت.

الصور السوداء هذه كلها تتعاقب أمامه فتترك كل منها في أعماق ذاته حسرة هادئة واستسلاماً هامساً باجتماع صامت يفتح بكل أحاسيس الألم ولكنها أحاسيس تموت بها الإرادة وتتهاوى به قواعد المستقبل.

هذا الرجل هو أبو العلاء المعري سجين المحبين أنه يقول:

عَيْرٌ مُجْدٍ فِي مِلَّتِي وَاعْتِقَادِي	نُوحٌ بَاكِ وَلَا تَرْتَمُ شَادِ
وَشَبِيهٌ صَوْتُ النَّعِيِّ إِذَا قِي	سَ بِصَوْتِ الْبَشِيرِ فِي كُلِّ نَادِ
أَبَكَّتْ تِلْكَمُ الْحَمَامَةُ أُمَّ عَن	نَتَ عَلَيَّ فَرَعُ عُصْنِهَا الْمِيَادِ
صَاحِ هَذِي قُبُورُنَا تَمْلَأُ الرَّحْ	بَ فَايْنَ الْقُبُورُ مِنْ عَهْدِ عَادِ

وينطلق أبو العلاء على سجيته التي حطمها الدهر فإذا به لا يترك وراءه غير أشلاء من الأفكار الميتة وغير حكم هي في صميمها حكم الخوف والجبن وضعف الإرادة.

هؤلاء الشعراء ومئات غيرهم تعاقبوا على الدنيا وفتشوا عن حلول حاسمة لمأساة الإنسان فلم يجدوا أمامهم مهارب لهم غير مغامرات مع المرأة أو الغرق في زقاق الخمرة أو الاستغراق في حب الذات وتحيل بطولات صورية أو اليأس المريض من الحياة والأحياء.

ومشكلة الإنسان الذي مرغه الدهر بتراب الذلة والمهانة لم تكن فقط موضوع هؤلاء الشعراء والأدباء ومن قبلهم من الفنانين. لقد كانت أيضاً وما تزال موضوعاً خصباً وغنياً لآحاد وعشرات من الأنبياء والمصلحين، كان القاسم المشترك بينهم هو الدعوة إلى تنمية روح الحب والتسامي بغرائز الإنسان وشد هذا الإنسان إلى اللانهاية.

اللانهاية متمثلة في الذات الإلهية، أو مرسومة في قيم إنسانية خالدة أو في صور وخيالات في كل منها معنى إلهي محدود.

هؤلاء الأنبياء والمصلحون لم ييأسوا أبداً، فمنهم من صور في رسالته الإصلاحية عظمة القانون الذي يلد العدالة، ومنهم من صور في هذه الرسالة عظمة الألم السعيد يقابل به مفاجآت الدهر ومصائبه. ومنهم أخيراً من هزّ الإنسان وعلمه أنّ الحياة هي مزيج من نضال مستمر وكفاح دائم وحب خصب وثقة بعظمة الله.

فأين هو الإنسان اليوم من خضم هذه الحلول؟ وكيف اختار الإنسان طريقة خلال هذه الأكوام من الاقتراحات وأنواع السلوك وأشتات العواطف والأحاسيس؟
الواقع أنّ الإنسان قد أصبح اليوم هدفاً لكل هذا وذاك وذلك.

إنّ يفتش على درجات متفاوتة من الأمل عن طريقه ولعلنا لو فكرنا قليلاً لوجدنا الحل. إنّ الحل الوحيد أيها المستمعون الكرام هو أن نقبل الحياة بما فيها من ألوان الحب والبغض، والأمل واليأس، والقوة والضعف، والخير والشر.

إنّ حبنا لهذه الحياة ومواجهتنا إياها بابتسامة دائمة وأن تحمل آلامها بصبر بطولي واستمتاع بأفراحها بهدوء الوائق من نفسه. إنّ هذا كله هو الذي ينقذنا من الحيرة، وهو الذي يمنعنا بما في دنيانا من الجمال والراحة ويمنحنا بطولة الصبر أمام مسؤولياتها الضخمة.

الحياة ليست جميلة كلها فليس أسرع من شيوع البأس في نفوس ساذجة لا تحب غير الجمال. والحياة ليست قبيحة كلها فليس أسرع من شيوع الضعف والخور في نفوس ساذجة مستسلمة إلى هذا القبح.

الحياة مجموعة من الأزمات وسلسلة من المناسبات تجد فيها الفرص العظيمة التي نتفوق فيها على أنفسنا وتسامى بها عن ضعفنا وأنايتنا.

إنّ الحياة هي النداء المستمر الذي يحننا جميعاً على العمل ويلح علينا في أن نجعل من هذا العمل مهما قسا
وصعب فيوضاً من السعادة وأمواجاً لا تنتهي من الضحكات الهادئة اليسيرة.
اضحكوا سيداتي وسادتي لحياتكم فتضحك لكم وقبلوها بالعزم الصادق على تحميلها فتحمل أمامكم وواجهونا
بما يتفق مع طبيعتها المتناقضة العجيبة والخصبة بفنون من القوى والطاقات الخلاقة.
هذه الحياة هي التي تسعدكم وترتفع بكم، فهل أنتم مستعدون للاستمتاع بهذا اللون من فن الحياة، إنّ هذه
المتعة سيداتي سادتي هي الطريق الوحيدة لإنقاذ الإنسان من مشكلة تربيته بترايب الذلة والمهانة.
إنّها طريق الخلاص.. إنّها طريق الحرية..